

الأمثال القرآنية في خرق النواميس الكونية

Quran Proverbs in breaking the universal law

عمر محمد نادر علي²

Omar Al Ali

محمد نادر علي¹

Mohammad Nader Ali

ملخص

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى- الخلق على ناموس كوني محكم لا يتبدل ولا يتحول، واعتاد الناس هذه السنّة، وألفوا ذلك الناموس، وظنوا أن الكون هكذا يبقى لا يتبدل نظامه ولا يتغير، بل حسب بعضهم أن الكون وُجِدَ بلا مكون، وقامت الحياة بلا مدبر؛ فأراد الله - سبحانه - أن يثبت للخلق وجوده، ويبرز قدرته على التغيير والتبديل بخرق العوائد، واستثناء السنن؛ فكانت معجزات الأنبياء التي أجراها على أيديهم، وظهرت عجائب قدرته تأييداً وتصديقاً لهم. كما جعل في الحياة بعض المواقف التي تجعل المتأمل يدرك أن لهذا الكون مكوناً، ولهذا السنن مدبراً، قادراً على خرق النواميس والعوائد، ليبرز جلال قدرته، وعظيم حكمته. فنار النمرود الحارقة التي انقلبت برداً وسلاماً على إبراهيم - عليه السلام - قد سلب الله منها طبيعتها وهي الإحراق، كما سلب خاصية القطع من السكين فلم تفعل في عنق اسماعيل، وجعل عصا موسى تنقلب حية تسعى، ويده تخرج بيضاء من غير سوء كلما أدخلها في جيبه. وهناك خوارق واستثناءات من نوع آخر أوردها القرآن الكريم لتكون عبرة للناس، كخلق إنسان بلا أنساب، وإحياء الموتى بعد أحقاب، وإيمان زوجة أظنى الناس، وكفر امرأة أتقى العباد... كل هذه المعجزات الخارقات، والآيات المبهرات تحمل رسائل بينات تقول: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾³.

¹ أستاذ مساعد بكلية الاهليات بجامعة كارابوكز تركيا muhammetnadirali@karabuk.edu.tr

² طالب دكتوراة بكلية الاهليات بجامعة كارابوكز تركيا. omaralali@karabuk.edu.tr

³ سورة البقرة: 20/2.

Abstract

Allah-SWT- created the creation based on a tight cosmic law that does not change nor transform. And people got used to this rule and law, and they have believed that the universe stays in this way and that its system and rules does not change or get replaced. Some even thought that the universe was found without a founder, and that the life arose without a planner, so Allah SWT wanted to demonstrate his existence and show his show his ability to change and replace by breaking the norms and rules. Hence the miracles of the prophet that was performed by him on their hands, and the wonders that were shown supported and approved them. He also gave life some situations that makes the meditator realize that there is a creator for this universe, and for these laws a maker, capable of breaking the laws and norms, to demonstrate the majesty of his abilities and the greatness of his wisdom. The burning fire of Nimrod turned cold and peaceful on Ibrahim -PBUH- Allah has taken away the characteristic of this fire, which is burning, he has also taken away the characteristic of the knife, as it didn't cut Ismail's neck, and he has turned Musa's stick into a snake, and Musa's hand came out shining white, unblemished whenever he put his hand in his pocket. There are paranormal and other exceptions of other types mentioned in the Holy Quran to be an example to people. Such as the creation of a human being without lineages, and the revival of the dead after ages, Also the faith of a wife of the most tyrannical person, and the infidelity of the woman of the most pious of servants... All these miraculous miracles, and the dazzling verses carry evidence messages that say: (Allah is capable of everything).

Keywords: Law – breach (breaking) - miracle - universe - ability

أهمية البحث:

في غمرة الحياة وغفلة النفوس ينبغي عرض بعض عجائب القدرة الإلهية المتمثلة بخرق العوائد واستثناء النواميس والسنن الكونية، من معجزات الأنبياء، وإحياء الموتى، ومخالفة بعض النظم الكونية والاجتماعية. يدرك المتأمل حينها أن لهذا الكون مكوناً، ولهذه السنن مديراً، تتجلى لنا قدرته، ونشهد عظيم حكمته.

مشكلة البحث

- هل يمكن أن ينقلب النظام الكوني، فينطفئ ضوء الشمس، وينطمس نور القمر؟
- هل يقوم الميت من قبره بعد أن تطويه الأيام وتفنيه الأزمان؟
- هل يمكن أن يُخَلَّفَ الكافر مؤمناً، ويُتَّجَب المؤمن كافرًا؟
- هل تكون المرأة الطيبة زوجة لخبث، والخبثية زوجة لمؤمن؟

منهج البحث

سلكت في هذا البحث منهج الاستقراء والاستنباط؛ لإبراز خوارق العادات في السنن الكونية وقد راعيت في بحثي الأساسيات الآتية:

- الرجوع إلى المعجمات اللغوية، للتعريف ببعض المصطلحات والمفردات الغريبة.
- عزو الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى أماكنها في القرآن الكريم.
- عزو الأحاديث النبوية الشريفة، إلى المساند والكتب التي وردت فيه، مع بيان درجة الصحة أو الضعف لكل منها.
- عزو كل اقتباس، من خبر أو أثر، إلى مصدره أو مرجعه.

التمهيد:

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - الخلق على ناموس كوني محكم لا يتبدل ولا يتحول: ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾⁴ حتى اعتاد الناس هذه السُنَّة، وألفوا ذاك الناموس وظنوا أن الكون هكذا يبقى لا يتبدل

⁴ سورة فاطر: 43/35.

نظامه ولا يتغير، بل حسب بعضهم أن الكون وُجد هكذا بلا مكون، وقامت الحياة هكذا بلا مدبر، وغفلوا عن المكون والمدبر، فأراد الله - سبحانه - أن يثبت للخلق وجوده وقدرته على التغيير والتبديل بخرق العوائد، واستثناء السنن، فأبرز قدرته بمعجزات الأنبياء التي أجزاها على أيديهم، فظهرت عجائب قدرته تأييداً وتصديقاً، وتثبيتاً وتمكيناً لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام. كما جعل في حياة الناس بعض المواقف التي تجعل المتأمل يدرك أن لهذا الكون مكون، ولهذه السنن مدبر قادر على خرق النواميس ونقض العوائد، ليرز جلال قدرته، وعظيم حكمته.

ونقف عند السنن الكونية، والنواتيس البشرية متدبرين متأملين قدرة الله - سبحانه - على تدبير الكون وتنظيمه وتسييره في منظومة دقيقة مذهشة لا تتغير ولا تتبدل. ولكن الله يعرض لنا نماذج من الخوارق للسنن الكونية، والعوائد البشرية؛ ليعلمنا أنه على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً.

المبحث الأول: خرق النواميس الكونية لتأييد الرسالات السماوية:

كل ما خرج عن المؤلف وخالف المعروف يسمى خارقاً، " والخوارق، جمع خارق وخارقة، اسم فاعل من خرَق، كلُّ ما خرج عن العادة⁵، ما يخرق نظام الطبيعة كالمعجزات، ما يجاوز قدرة الإنسان " حدث، عمل خارق - رؤيا خارقة - مشهد خارق، وأمرٌ خارق للعادة: مجاوز لقدرة العبد أو لطبيعة المخلوقات، كالمعجزة والكرامة⁶.
أما الكون فيعرفه الجرجاني بقوله: " هو عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم لا من حيث إنه حق، وإن كان مراداً للوجود المطلق العام عند أهل النظر، وهو بمعنى المكون عندهم." ⁷

⁵ من مجموع {العادة:} عَوَائِد، ذَكَرَهُ فِي الْمِصْبَاحِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ نَظِيرُ حَوَائِجٍ، فِي جَمْعِ حَاجَةٍ. انظر، مرتضى الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس، تحقيق: مجموعة من المحققين (دمشق: دار الهداية، د.ت)، ج8، ص443.

⁶ أحمد مختار عبد الحميد عمر (بمساعدة فريق عمل)، معجم اللغة العربية المعاصرة (القاهرة: عالم الكتب 2008 م)، ج1، ص635.

⁷ الشريف الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: مجموعة من العلماء بإشراف الناشر (بيروت: دار الكتب العلمية 1983م)، ص188.



فما ألفة الناس من نواميس الحياة، وقوانين السنن الكونية القائمة في الوجود لا تتبدل ولا تتغير: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا
خَلْقًا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾⁸.

لكن الله إذا أراد أن يبرهن لخلقه على قدرته ومطلق مشيئته، يمكن أن يخرق هذه السنن، ويستثني هذه النواميس؛ فيؤيد
رسله وعباده الصالحين ببعض هذه الخوارق.

المطلب الأول: نماذج من معجزات الأنبياء:

يوثق القرآن الكريم خوارق مدهشة أجزاها الله على يدي أنبيائه ليعزز رسالتهم، ويؤيد دعوتهم:

- نار النمرود لا تحرق إبراهيم عليه السلام:

تنقلب نار النمرود الحارقة برداً وسلاماً على إبراهيم- عليه السلام-: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ،
قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾⁹.

فقد سلب الله - سبحانه- منها طبيعتها وهي الإحراق، وجعلها باردة لا تضر نبي الله إبراهيم حتى إنه سئل

عن أسعد أيام حياته التي قضاها فقال: هي الأيام التي كانت في نار النمرود.

قَالَ السُّدِّيُّ: " فَأَخَذَتِ الْمَلَائِكَةُ بِضَبْعِي إِبْرَاهِيمَ وَأَقْعَدُوهُ فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، وَوَرْدٌ أَحْمَرٌ، وَنَرْجِسٌ. وَلَمْ
تُحْرِقِ النَّارُ مِنْهُ إِلَّا وَثَاقَهُ، وَقَالَ الْمِنْهَالُ بْنُ عَمْرٍو أُخْبِرْتُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ كَانَ فِيهَا إِمَّا أَرْبَعِينَ
يَوْمًا أَوْ خَمْسِينَ يَوْمًا، وَقَالَ: مَا كُنْتُ أَيَّامًا أَطِيبَ عَيْشًا مِنِّي إِذْ كُنْتُ فِيهَا"¹⁰.

- تحول العصى إلى حية وثعبان:

⁸ سورة الأحزاب: 62/33.

⁹ سورة إبراهيم: 68/14، 69.

¹⁰ الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (بيروت: دار إحياء التراث العربي 1420هـ)، ج22، ص158.

ومن خوارق العادات البشرية، واستثناء السنن الكونية، انقلاب عصا موسى إلى حية تسعى، قال - تعالى - مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْتَوَكَأُ عَلَيْهَا وَأَهْبَثُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى * قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾¹¹.

عصا خشبية جافة يابسة تنقلب إلى حية تسعى، تخيف موسى -عليه السلام-، فيولي مدبراً ولا يعقب، وترعب فرعون وملأه وتخيفهم، وتلقف العصي والحبال وتبتلعها، فيؤمن السحرة بالله القادر الحق على خرق العوائد وخلق العجائب. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ¹². روي: أنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها، أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت، فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا. فصاروا مغلوبين مبهوتين، ورجع فرعون وقومه إلى المدينة أذلاء مقهورين¹³.

- يد موسى تضيء كأنها مصباح:

تخرج يد موسى بيضاء من غير سوء كلما أدخلها في جيبه؛ قال الله تعالى: ﴿اسْأَلْكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ...¹⁴﴾، أي تلمع كأنها برق، مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَدَى، وَمِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَوْ عَيْبٍ؛ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أُخْرِجَهَا وَاللَّهُ كَأَنَّهَا مِصْبَاحٌ¹⁵.

كانت آية اليد معجزة خارقة، فهي تكشف سحف الظلام، وتضيء عتمة الليل، يأنس بها المؤمنون، ويدهش من رؤيتها المعاندون والمستكبرون.

¹¹ سورة طه: 17 / 20 - 18 - 19 - 20 - 21.

¹² سورة الأعراف: 7 / 117 - 118 - 119.

¹³ البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي 1418 هـ)، ج3، ص28.

¹⁴ سورة طه: 22/20.

¹⁵ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية 1419 هـ)، ج5، ص248.

- معجزات عيسى عليه السلام:

أما معجزات عيسى عليه السلام فكثيرة، تفحم المعاندين من بني إسرائيل، وثبت المؤمنين ومنها: كلامه في المهد حينما جاءت به أمه قومها تحمله، وقد وضعته لساعتها، فلما خاطبها معاتبين ومؤمنين، أشارت إليه، فانتفض في حضنها، وخاطبهم بلسان فصيح، وصوت مؤثر معلناً عبوديته لله ورسالته إليهم، ولما شب وقام يدعوهم للإسلام عاندوه وطلبوا منه آيات وآيات؛ فامتحنوه بإحياء بعض الموتى فأحياهم، كما طالبوه بإبراء ذوي العاهات التي لا يمكن لبشر إبراءها، فأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، والأعجب من كل هذا طلبوا منه أن يخلق لهم من الطين طيراً يطير ففعل، كل ذلك بإذن الله وقدرته: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾¹⁶.

والأعجب من هذا كله طلب الحواريين المؤمنين، أن ينزل عليهم من السماء مائدة، ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم بالإيمان؛ فأنزل الله المائدة لهم استجابة لطلبهم: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ *﴾¹⁷.

- خروج الناقة من جوف الجبل تأييداً لصالح عليه السلام:

¹⁶ سورة المائدة: 110/5.

¹⁷ سورة المائدة: 112/5 - 113 - 114 - 115.

وعندما كذبت ثمود رسول الله صالحًا وطالبوه بينة على صدق رسالته، أخرج الله لهم الناقة من جوف الصخر، آية لصالح عليه السلام وتأييدًا لرسالته.

وتخرج الناقة من سفح الجبل، وهم ينظرون ويعجبون، ولكنهم لا يعتبرون ولا يصدقون، ويعقرون الناقة فيقع عليهم العذاب والهلاك.

يقول تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾¹⁸.

- معجزة الإسراء والمعراج تأييدًا لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام:

ومن أعظم المعجزات وأعجب الخارقات معجزة الإسراء والمعراج التي تفرد بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من دون الأنبياء؛ حيث أسري به ليلاً من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس بالشام، ثم العروج به إلى السموات العلا في ليلة واحدة، حيث أصبح يحدث الناس برحلته ويصف لهم معالمها. فصدقه من آمن، وجحد من كفر. وقد وثق الله رحلة الإسراء في بداية سورة سميت بالإسراء، حيث يقول: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾¹⁹

كما وثق رحلة المعراج بسورة النجم، فصل فيها مرآي النبي - صلى الله عليه وسلم - ومشاهداته يقول في بدايتها ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * ... لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾²⁰.

إنها معجزة عظيمة برحلة عجيبة، حُصَّ بها محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من دون سائر الأنبياء؛ لم يحظ بمثلها أحد من الخلق من قبل ولا من بعد.

¹⁸ سورة الأعراف: 73/7.

¹⁹ سورة الإسراء: 1/17.

²⁰ سورة النجم: 1/53 ... 18.

انشقاق القمر تأييداً لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ولما استكبر طغاة قريش وجحدوا رسالة النبي قالوا معاجزين لن نؤمن بك حتى ينشق هذا القمر فلقطين، وكانت ليلة النصف والقمر بدرًا. لقد طلبوا المستحيل على الخلق، ولكن ذلك على الله هين فأشار عليه السلام للقمر بإصبعه فانشق نصفين، فقال لهم اشهدوا. فوثق الله هذه المعجزة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بداية سورة سميت بالقمر حيث يقول: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر* وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌ﴾²¹ وقد روى لنا عبد الله بن مسعود تفاعل الناس بهذه الحادثة فقال: «انشق القمر بمكة حتى صار فلقين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحرٌ سحرٌكم به ابنُ أبي كبشة، انظروا السقار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحرٌ سحرٌكم به. قال: فسئل السقار، قال: وقدموا من كلِّ وجه، فقالوا: رأيناها»²². كلها آيات بينات، ومعجزات خالدة، أبرز الله من خلالها قدرته على خرق النواميس، وفعل العجائب، تأييداً لأنبيائه، وإظهاراً لقدرته وعظمته. آيات كثيرة وحوارق مثيرة، وكلها تحمل رسائل تقول: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾²³. ويطول الحديث عن المعجزات إن أردنا استقصاءها، وكلها حوارق لعوائد الخلق، ونواتج الكون. تدل على عظيم قدرته، ومطلق إرادته. ونريد الوقوف على بعض استثناءات السنن الكونية، التي اعتادها الناس في حياتهم، نماذج بشرية وثقها القرآن الكريم بآياته وسوره.

المطلب الثاني: إحياء الأموات:

وإحياء الموتى صورة رائعة من عجائب القدرة الإلهية، يعرضها القرآن الكريم في مثال إحياء الطيور بعد ذبحها بيد نبي الله إبراهيم عليه السلام.

²¹ سورة القمر 1-2

²² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، ص440.

²³ سورة البقرة: 20/2.

قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوْمَأْتُ ثَمَّ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيَظْمِنَ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾²⁴

لقد اشتاق قلب خليل الرحمن . عليه السلام . إلى رؤية عظيم صنع الله ، فأكرمه بمعاينة إحياء تلك الطيور ، وقد كان موقنا بأن الله - سبحانه - فاعل ، ولكن قلبه حنّ إلى مشاهدة عجب قدرة الله ، فمن الله عليه بها ، حتى أطمأن قلبه ، وسكن حنينه ووجدته . لقد أمره الله - سبحانه - أن يأتي بأربعة طيور فيذبحها ، ويقطعها إرباً إرباً ، ويخلط لحمها بريشها ، ويوزعها حصصاً على رؤوس الجبال التي حوله ، ثم يدعوهن - بإذن الله - فيقبلن مسرعات إليه ؛ فيرى عياناً عجائب قدرة الله على إحياء الموتى . أورد الزمخشري في الكشاف : " أنه أمر بأن يذبحها ، وينتف ريشها ، ويقطعها ويفرق أجزائها ، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ، وأن يمسك رؤوسها ، ثم أمر أن يجعل بأجزائها على الجبال ، على كل جبل ربعاً من كل طائر ، ثم يصيح بها : تعالين بإذن الله ، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن ، كل جثة إلى رأسها ."²⁵

ونرى مثالين متشابهين للبعث والنشور بعد الموت والفتنة : أصحاب الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً ، حيث جعلهم الله - سبحانه - مثلاً لحياة البرزخ ، والبعث بعد الموت . قال الله - سبحانه - ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * ... وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ... ﴾²⁶ . إنهم فتية لجأوا إلى كهف في سفح جبل ، ليواصلوا هربهم بدينهم ، فراراً من طاغية عصرهم ، وظنوا أنهم سيخرجون بعد ساعات منه ، وما علموا أن الدهر سيطويهم أكثر من ثلاثة

²⁴ سورة البقرة: 260 / 2.

²⁵ الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (بيروت: دار الكتاب العربي 1407هـ)، ج1، ص310.

²⁶ سورة الكهف: 18/ 10 25.

قرون ليستيقظوا بعدها متسائلين كم لبثتم؟ يوماً! بعض يوم! لقد كانوا آية باهرة لقدرة الله - عز وجل - على البعث بعد الموت. وكذلك يقص علينا القرآن الكريم قصة الذي مر بالقرية المدمرة، وقد أفقرت وخلت من سكانها بعدما هلكوا جميعاً فوقع في نفسه إشكال البعث والإحياء بعد الموت والفناء، فقال متسائلاً متعجباً: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مئة عام ثم بعثه...﴾²⁷.

إنها مشاهد تمثل البعث بعد الموت، لتبقى صورة النشور يوم القيامة ماثلة في الأذهان، شاخصة في الضمائر، ويظل السؤال المدهش الذي يوجه للخلق بعد الاستيقاظ من رقدة البرزخ وهم يتمتمون ﴿ياويلنا من بعثنا من مرقدنا...﴾²⁸ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون...﴾²⁹ إنه مشهد يلخص الحياة الدنيا بما فيها ومن فيها، ويمثل قول الإمام علي رضي الله عنه: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»³⁰.

المبحث الثاني: خرق النواميس في الخلق والإيجاد:

المطلب الأول: مولود بلا والدين:

ومن أعجب الأمثال ما ضربه - سبحانه - لخرق السنن الكونية التي نعهد لها في التناسل بين الكائنات الحية؛ حيث لا يتم التوالد إلا من خلال التقاء الذكر بالأنثى، ولا يمكن أن يتخلق إنسان إلا من ذكر وأنثى، وهذه سنة الله في خلقه؛ لكنه - سبحانه - يخبرنا أنه قادر على خرق العوائد وتجاوز الأسباب، وإيجاد الإنسان على غير المعتاد، فيخلقه من طين لازب، أو من حمأ مسنون. فهذا آدم - عليه السلام - يخلقه الله - جل جلاله - من تراب بلا أنثى ولا ذكر: ﴿

²⁷ سورة البقرة: 259 / 2.

²⁸ سورة يس: 36 / 52.

²⁹ سورة المؤمنون: 23 / 113.

³⁰ انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد هندراوي (القاهرة: المكتبة العصرية 2000م) ج2،

ص378.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣١﴾ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٣٢﴾. فقد بين - سبحانه - أنه خلق الإنسان من تراب وطين وأنشأه من غير والدين ليرز عظمة خلقه، ومطلق قدرته.

المطلب الثاني: مولودة بلا والدة:

كما يضرب الله لنا مثلاً آخر يظهر لنا فيه عظيم قدرته، وبيع صنعته، فيخلق حواء من ذكر بلا أنثى على خلاف المعهود من نواميس الحياة؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً... ﴾³³ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾³⁴ على خلاف المعهود من سنن الوجود، يخلق إنسانة أنثى من ضلع إنسان ذكر، يعزز خلق حواء من ضلع آدم حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يقول فيه: «إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج...»³⁵. لقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة على أَنَّ الْمَرْأَةَ الْأُولَى كَانَ وَجُودُهَا الْأَوَّلُ مُسْتَبَدًّا إِلَى وَجُودِ الرَّجُلِ وَفَرَعًا عَنْهُ. وَهَذَا أَمْرٌ كَوْنِيٌّ قَدْرِيٌّ مِنَ اللَّهِ، أَنْشَأَ الْمَرْأَةَ فِي إِبْجَادِهَا الْأَوَّلِ عَلَيْهِ".³⁶

المطلب الثالث: مولود بلا والد:

³¹ سورة ص: 71 / 38-72.

³² سورة الروم: 20 / 30.

³³ سورة النساء: 1 / 4.

³⁴ سورة الأعراف: 189 / 7-190.

³⁵ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، كتاب الرضاع، ج2، ص1091، رقم 1468.

³⁶ انظر، التفصيل في: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع 1995م)، ج7، ص414.

ويأتي المثال الثالث لخرق النواميس والسنن الكونية؛ ليدل - سبحانه - على كمال قدرته المطلقة فيخلق عيسى - عليه السلام - من أنثى بلا ذكر: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾³⁷ ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.³⁸

فلا عجب أن خلق إنساناً ذكراً من إنسانة أنثى عذراء من غير زوج فقد سبق وخلق بشراً سوياً بلا والدين وآخر سوياً بلا والدة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.³⁹

كل ذلك ليرينا - سبحانه - مدى قدرته على التصرف في الخلق كيفما يشاء بسبب وبلا سبب.

المطلب الرابع: المولود في غير أوانه:

كما يقص علينا القرآن الكريم خبر إنجاب الولد من شيخ وهن عظمه، واشتعل شيبه، وبلغ من الكبر عتياً، وعجوز عاقر أدبر شباهما، وغربت شمس عمرها. حيث يهب لإبراهيم - عليه السلام غلاماً سوياً هو إسحاق، فيقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ..... وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.⁴⁰

فلا تعجبوا من أمر الله القادر على كل شيء؛ فهذا هو ذا يعيد المثال مرة أخرى، يحدثنا عن أمر مشابه لنبي كريم آخر، هو زكريا - عليه السلام - حيث يبشره بمولود يجعله تقياً، وسيكون نبياً، هو يحيى عليه السلام من بعد ما يئس من الإنجاب فقد تقدم به العمر، وشابت امرأته، ولم تحمل من قبل، قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾⁴¹

³⁷ سورة آل عمران: 48 / 3.

³⁸ سورة مريم: 34 / 19.

³⁹ سورة آل عمران: 59 / 3.

⁴⁰ سورة هود: 69 / 11 - 70 - 71 - 72 - 73.

⁴¹ مريم 7، 8، 9

إنها قدرة الله الذي يفعل ما يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء.

المبحث الثالث: خرق النظم الاجتماعية

وكما عهدنا في سنن الحياة فإن المرأة تتبع زوجها في سلوكه ومعتقده، فالمرأة على دين زوجها، لأنها تعيشه في المأكل والمشرب، وتسكنه في المأوى، وتضاجعه في الفراش؛ فالغالب في سنن الحياة أن توافقه في أقواله ومشاعره ومعتقداته، تقول مايقول، وتؤمن بما يؤمن. ويمثلها قول الله - عز وجل - في محكم التنزيل: ﴿الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ...﴾⁴². ولكننا نقرأ شواهد قرآنية تمثل خرقاً لهذه السنن الكونية في نماذج إنسانية مستثناة من هذه السنن. فنجد الزوج الطيب مع الزوجة الخبيثة والزوج الخبيث مع الزوجة الطيبة.

المطلب الأول: تناقض التزواج

- الزوج الطيب وزوجته خبيثة

- مثل الرجل الصالح مع الزوجة الكافرة

ومن أطرف الأمثال القرآنية نجد عبداً طيباً صالحاً يتلى بزوجة خبيثة كافرة.

قال - عز وجل - يقص خبر امرأتين خبيثتين كافرتين، هما زوجة نوح وزوجة لوط - عليهما السلام - ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَحَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾⁴³.

لقد عرض القرآن الكريم مثلاً للذين كفروا، امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين صالحين، هما نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام.

⁴² النور 26

⁴³ التحريم 10

لقد عاشت كل واحدة منهما تبطن الكفر وتظهر الإيمان، لا يدري زوجها ما في قلبها، فلا يعلم الغيب إلا الله، لم يكتشف كل منهما خيانة زوجته إلا عندما أخبره الوحي وحل العذاب بقومهما، ولم تكن الخيانة منهما إلا كفر القلب. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها أهما كانتا على غير دينهما، وكانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون وإذا آمن أحد أخبرته به الجبابرة من قومها، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل قومها على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار، وإذا نزل به ضيف بالنهار دخنت لتعلم قومها بذلك، وقيل أسرت النفاق وأظهرت الإيمان، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي، لم يدفعا عن امرأتهما مع نبوتهما عذاب الله، ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾⁴⁴.

مثل ضربه الله تعالى لخلقه، يقرر فيه أنه لا ينفع العصي طاعة غيره ولا يضر المطيع معصية غيره؛ وإن كانت القرابة متصلة بينهم، وأن القريب كالأجنبي، بل أبعد، وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبياً، كامرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما لم يغن هذا الرسولان عن امرأتهما شيئاً، فقطع بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية ويتكلم على صلاح غيره.

- الزوج الخبيث زوجته طيبة

- مثل المرأة المؤمنة الصالحة التي ابتليت بزواج فاجر كافر

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتٍ فَرَعَوْنَ - يعني آسية بنت مزاحم - وكانت امرأة عاقلة فيوم جاءتها الجوارى بموسى، بعدما التقطته من النيل ما لبثت أن استوهبته من فرعون حينما أراد ذبحه وقالت ﴿قرة عين لي ولك﴾ وسعدت باحتضانه، ولما رجع رسولاً إلى فرعون وملئه وحضرت يوم الزينة حيث آمن السحرة بعدما رأوا الرهان بصدق موسى آمنت وصدقت وسألت ربما أن يقبضها إليه، وبنجها من فرعون وعمله ومن ظلم قومه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتٍ فَرَعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁴⁵.

⁴⁴ روح المعاني، ج 14، ص: 357

⁴⁵ سورة التحريم: 11/66.

قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت به امرأة فرعون، فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس، فكانت تعذب في الشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة. وكشف الله لها عن بيتها في الجنة وقيل إن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوها بالصخرة قالت: رب ابن لي عندك بيتا في الجنة، فأبصرت بيتها في الجنة، وانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، ولم تجد الماء. وقيل: رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي تأكل وتشرب فيها⁴⁶.

- المطلب الثاني: تناقض التوالد

من السنن الاجتماعية، أن البيئة الصالحة الطيبة ينشأ فيها الولد الصالح الطيب، والبيئة السيئة الخبيثة ينشأ فيها الولد الخبيث السيء، فالوالد الصالح يلد الولد الصالح، والوالد الطالح يلد الولد الطالح؛ ولكننا نرى أمثالا قرآنية تستثني هذا الناموس، فنجد والدا صالحا يعيش في كنفه ولد فاسد، كما نجد رجلا فاسدا ينشأ في كنفه ولد صالح.

- مثل الرجل الصالح يبتلى بولد كافر فاجر

ضرب الله مثلا للرجل الصالح الذي كفر ولده وضلّ، ولم يستطع هدايته بنوح - عليه السلام - وولده كنعان! حيث يقص علينا القرآن الكريم خبره مع ولده الذي أبى أن يتبع أباه حتى في ساعة الحرج والغرق. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾⁴⁷ وسأل نوح ربه أن يرد ولده الغريق إليه بعاطفة الأبوة، فأبى الله تعالى ذلك عليه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ

⁴⁶ الألويسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عطية (بيروت: دار الكتب العلمية

1415هـ)، ج 14، ص 358.

⁴⁷ سورة هود: 11/ 41- 42- 43.

مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ⁴⁸ لقد أثبت القرآن الكريم كفر الولد وعاتب نوحاً لأسفه على ولده لأنه عمل عملاً غير صالح. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَرَأَ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.⁴⁹

لقد كان الولد يبطن الكفر ويخوض في المعاصي كلها، ويداهن والده فيدعي الإيمان، ولم يكتشف نوح كفر ولده وفساده إلا بعدما أخبره الوحي بذلك.

- مثل الولد الصالح يبتلى بوالد كافر فاجر

كما ضرب الله - سبحانه - لنا مثلاً للولد التقى الصالح الذي لم يستطع أن يهدي أباه حين أصرّ على الغواية والضلال. فيقصّ علينا القرآن الكريم خبر إبراهيم - عليه السلام - وأبيه آزر، يتلطف بدعوته للإسلام، ونبذ الأوثان، لكن الدنيا أعمت بصيرة الوالد، فأثر زخرفها على ولده ودعوته فشاخره وغاضبه وهدده بالرجم إن لم يقلع عن دعوته. وظل إبراهيم وفيّاً للأبوة محافظاً على البر رغم سوء خلق الوالد. يصور الحق سبحانه هذا المشهد الحوارى بين ولد بار صالح ووالد ضالٍ مستكبر، فيقول: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.⁵⁰

وهكذا يخرج الله سبحانه وتعالى المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، فقد خرج إبراهيم - عليه السلام - من صلب آزر، وإبراهيم نبي، وأبوه آزر كان كافراً، وكذلك خرج كنعان وهو كافر من صلب نوح - عليه السلام - وهو نبي، حتى لا يلام والد بفسق ولده وضلاله، كما لا يلام ولد بفجور والده

⁴⁸ سورة هود: 11 / 45 - 46.

⁴⁹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص283.

⁵⁰ سورة مريم: 19 / 41 - 42 - 43 - 44 - 45 - 46.

وإجرامه، ف ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾⁵¹ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾⁵². فالله هو المتصرف في خلقه كيف يشاء، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾.⁵³

الخاتمة

وأخيراً يتبين لنا أن السنن الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير، يمكن استثناء بعضها لحكمة يريد بها الله، لأنه قادر على خرق النواميس والسنن، ليدرك الإنسان قدرة الله - سبحانه - وإرادته المطلقة؛ التي لا تقيدتها النظم الكونية، والنواميس الوجودية، فهو سبحانه فعال لما يريد. فالنار يبطل حرقها، والسكين يبطل قطعها إذا أراد الله ذلك، والماء لا يروي من ظمأ، والطعام لا يشبع من جوع، إلا إذا قيد يأذن الله ومشيتته. وله مطلق التصرف ف ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾⁵⁴.

ومع تقدم الحضارة العالمية ونضوج الفكر الإنساني، يتوجب على أهل العلم أن يقفوا على بعض الظواهر الكونية التي كانت الأجيال السابقة لا تجد لها تفسيراً، فيجدوا لهذه الظواهر تفسيراً منطقياً، كي يعلم الناس أن الله - سبحانه - هو الملك الحق الذي بيده ملكوت كل شيء، يقضي في كونه ما يشاء، ويفعل ما يريد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

⁵¹ سورة الطور: 21 / 52.

⁵² سورة الانعام: 164 / 6.

⁵³ سورة النور: 35 / 24.

⁵⁴ سورة الروم: 19 / 30.

- الزمخشري، محمود بن عمرو (ت: 1144م)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (بيروت: دار الكتاب العربي 1407هـ).
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت: 1373م)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية 1419هـ).
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (بمساعدة فريق عمل)، معجم اللغة العربية المعاصرة (القاهرة: عالم الكتب 2008 م).
- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله (ت: 1854م)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عطية (بيروت: دار الكتب العلمية 1415هـ).
- البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت: 1286م)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي 1418 هـ)، ج3، ص28.
- الرازي، محمد بن عمر (ت: 925م)، مفاتيح الغيب (بيروت: دار إحياء التراث العربي 1420هـ).
- الشريف الجرجاني، علي بن محمد (ت: 1413م)، التعريفات، تحقيق: مجموعة من العلماء بإشراف الناشر (بيروت: دار الكتب العلمية 1983م).
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت: 875م)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- العجلوني، إسماعيل بن محمد (ت: 1749م)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد هندأوي (القاهرة: المكتبة العصرية 2000م).
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع 1995م)
- مرتضى الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت: 1790م)، تاج العروس، تحقيق: مجموعة من المحققين (دمشق: دار الهداية، د.ت).